مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

الخطاب الصوفي في المدونات الجزائرية خلال العهد العثماني "تاريخ العدواني أنموذجا"

Mystic discourse on Algerian blogs during the Ottoman period "The Al-Ad wani history as a model"

د. يوسف بن حيدة
benhidasf1@gmail .com
جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي

تاريخ الإرسال: 2020/10/17 تاريخ القبول: 2022/02/24

الملخـــص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على بعض مميزات الخطاب الصوفي في المدونات والكتابات التاريخية بالجزائر خلال الفترة العثمانية، وفي هـــذا المجال يُعَدّ كتاب "تاريخ العدواني » لمؤلفه محمد بن عمر العدواني من أهمّ المصنفات التاريخية التي سلطت الأضواء على جانب كبير من التراث الشعبي والصوفي، ، وقد اقتضت طبيعة الدراسة من خلال هذه الورقة البحثية اتباع المنهج التاريخي لاستقصاء أهم خصوصيات هذا الخطاب ورصد أهم المفاهيم وربطها بالمجال الزماني والمكاني الذي عاشه المؤلف ومحاولة ربطها بالتاريخ الموضوعي، بأسلوب أدبي وبمضامين دينية مناقبيّة، لنصل في الأخير إلى استنتاج مفاده أن تاريخ العدواني لا يمكن الاستغناء عنه في التعرف على التاريخ المحلي والجهوي خلال الفترة العثمانية، فهو بمثابة نفحة تاريخية تضمنت خطابا صوفيا جمع فيه المؤلف بين الأسلوب القصصي والسرد التاريخي فيما تناوله من أخبار وهجرات القبائل والمكاشفات الصوفية والرحلات روحية .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

الكلمات المفتاحية: التصوف ؛ التاريخ ؛ المناقب ؛ العدواني ؛ الكرامة؛

ABSTRACT:

This study aims to identify some of the characteristics of the Sufi discourse in the historical blogs and writings in Algeria during the Ottoman period. In this field, the book "The History of the Al-Adwani" by Muhammad Ibn Omar Al-Adwani is one of the most important historical works that shed light on a large aspect of the folk and mystical heritage. The nature of the study, through this research paper, necessitated following the historical approach to investigate the most important peculiarities of this discourse, monitoring the most important concepts and linking them to the temporal and spatial domain in which the author lived, and trying to relate them to the objective history, in a literary style and with religious moral content, in order to arrive.

In the end to the conclusion that the history of Al-Adwani is indispensable On his understanding of local and regional history during the Ottoman period, it is a historical flavor that included a Sufi discourse in which the author combined the narrative style and the historical narration in what he dealt with news, migrations of tribes, Sufi discoveries, and spiritual journeys.

Keywords: Mysticism; History; Virtues; Al-Adwani; Dignity;

المقدمـــة:

شكّل الخطاب الصوفي إنتاجا خصبا في الفترة الحديثة فكانت مواضيعه تندرج في مجملها حول مناقب المتصوفة والعناية بتراجم عدد من الأولياء المتقدّمين والمتأخرين، وجاءت المناقب بلغة بيانية أقرب إلى التمجيد منها إلى التاريخ الموضوعي، كما تميّزت

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

الكثير من الكتابات التاريخية بطابع روحي وما تعلّق به من إرهاصات صوفية متصلة بالصلاح والكرامة، وتجلّياتها البارزة الماثلة في كتب السِّير والتراجم الصوفية وما يختصّ بها من مفاهيم وتصورات حول الولاية والكرامات.

ونظرا للخصوصية التي عرفها التصوف وانتشاره بالجزائر في العهد العثماني، فقد انعكس على موضوع الكتابات التاريخية والاهتمامات الدينية والأدبية، سواء ما تعلّق منها بالتراجم أو المناقب والرسائل والتقييدات والمواعظ والحكم، ومثل هذا التراث مثّل مصدرا خصبا للدراسات التاريخية بما يقدمه من قيمة وثائقية بشكل عام تتناول التاريخ الاجتماعي والثقافي.

وفي هـــذا الجانب يُعَدّ كتاب "**تاريخ العدواني**"من أهمّ المصنفات التاريخية التي سلطت الأضواء على جانب كبير من التراث الشعبي كجزء من التاريخ المحلّي مرتبط بأبعاد رمزية، وتندرج هذه الورقة البحثية حول أهمية وخصوصيات الخطاب الصوفي في تاريخ العدواني بما يتضمنه من تأويلات ومفاهيم ومقامات وأحوال، ومدى تأثير الكرامات، ومكانة الأولياء في المجتمع المحلّي الذي عاش فيه الكاتب، وداخل هذا الاتجاه هناك إشكالية أساسية سوف نركّز عليها تمثل منطلقا لملاحظة أولية هي أنّ التصوف كخطاب محرك قد غزا الرواية التاريخية الجزائرية في الفترة الحديثة بما تضمنه من مناقب وآثار ورحلات ومكاشفات، وتتفرع عن الإشكالية تساؤلات أبرزها: – ما هي مميزات وخصائص هذا الخطاب ضمن تاريخ العدواني وأبرز المواضيع التي تناولها؟ وهل يمكن الحديث عن خطاب صوفي تجديدي أم أنّه امتداد للكتابات التاريخية والصوفية التي ميّزت المرحلة ؟

وللإجابة على التساؤلات حاولنا استقراء كتاب العدواني وتحليل المواضيع التي ركزت على الجانب الصوفي من خلال منهج تاريخي تحليلي واستنتاجي وفق مقاربة

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

تاريخية أدبية تراعي الخطاب الصوفي الذي ميّز الكتاب، وتفكيك النّص المنقبي من خلال تتبع أبعاده الرمزية وأحداثه التاريخية، انطلاقا ممّا يقدّمه للمؤرخ من معلومات ومضامين ذات قيمة وثائقية بشكل عام، وباعتباره يشكل مظهرا من مظاهر التاريخ الاجتماعي والثقافي .

2. نبذة عن المدونات التاريخية واهتماماتها الصوفية:

اشتهرت الكثير من المدونات خلال هذه الفترة بالطرح الصوفي في ما تضمنته من آثار وتراث تنوع بين الرحلات والنوازل وكتب الوعظ والتراجم، وتطرقت لحياة المتصوفة وتعداد فضائلهم، والأمثلة والنماذج عديدة في هذا الجانب، نذكر منها على سبيل المثال كتاب "المواهب القدسية في المناقب السنوسية" لمحمد بن عمر بن إبراهيم الملالي الذي تناول حياة وأعمال محمد بن يوسف السنوسي (ت 898هـ/1490م)، ومخطوط "بستان الأزهار في مناقب الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار"، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي الصباغ القلعي، والذي تضمن حياة ومناقب أحمد بن يوسف الراشدي (ت 931هـ/ 1524م)[1]، إضافة إلى أرجوزة "الفلك الكواكبي" في أولياء منطقة الشلف لأبي عبد الله بن المغوفل (ت923هـ/ 1023م)، و"كعبة الطائفين" لـ: امحمد بن سليمان، والذي تضمن تاريخ ومآثر أعلام

[1] – محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبد الله السنوسي الحسني، ولد سنة 832هـ/1428م، من كبار علماء تلمسان وزهادها، تبحر في العلوم الدينية والعقلية كالتفسير والفقه والحديث والأصول وعلم الكلام والفلسفة والتصوف، ترك عدّة مؤلفات منها: "العقيدة الكبرى" المسماة عقيدة التوحيد، والعقيدة الصغرى وهي خلاصة لعقيدته، تكون على يديه عدة تلاميذ كابن صعد وأبو القاسم الزواوي، انظر ترجمته في كتاب: أبي عبد الله محمد بن أحمد، ابن مريم "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، تحقيق: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص 237 .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

تلمسان وتدوين نشاطهم الصوفي في القرن (11هـ/ 17م)، وكتاب "منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية" لعبد الكريم الفكون (ت 1073هـ/ 1662م) والذي جمع فيه الكاتب بين البعد المنقبي والنقدي لبعض المتصوفة الذين اشتهروا ببايليك الشرق، وغيرها من المدونات التي اشتهرت بها الفترة العثمانية[1].

وأمام تعدد الكتابات وتنوع مواضيعها، فإنّ أغلبها خلال الفترة المدروسة تناولت تأثير المتصوفة ومشاركتهم في الأحداث التاريخية، وعلاقتهم بالسلطة بين التحالف أو المعارضة والثورة، إضافة إلى ما تضمنته من سير وتراجم لشخصيات صوفية وطرق كان لها دور ديني واجتماعي وسياسي بالمنطقة [2].

[1]– أحمد بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الجليل بن يمداس بن عبد الله يرجع نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب، يرجح تاريخ ميلاده بمنتصف القرن 09هـ/15م، نسجت حول ميلاده قصص وروايات، وتتضارب الروايات حول مسقط رأسه، فمنهم من ذهب إلى أنّ مولده بقلعة بني راشد، وتذهب أخرى إلى أن مسقط رأسه بمناطق في الصحراء بتوات أو قورارة ..، للتفاصيل عن ترجمته ينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الصباغ، بستان الأزهار في مناقب الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، تحت رقم: 1707 نسخ 1140هـ، 1727م. ورقة 3.

[2]– مثل ما تضمنه كتاب "طلوع سعد السعود" للآغا بن عودة المزاري والذي حققه الدكتور يحيى بوعزيز، و"دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران" للشيخ محمد بن يوسف الزياني الذي حققه الشيخ المهدي بوعبدلي، واندرجت مواضيعهم حول تطورات الوضع بالأيالة وبايليك الغرب، فتعرّضوا لثورة الطريقة الدرقاوية والتجانية في بداية القرن التاسع عشر، والأحداث التي عرفها بايليك الغرب، انظر: المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2012، ص 124.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

وبين الطرح التاريخي والديني يظهر الاهتمام الصوفي في عديد الكتابات التي جمعت في خطابها بين التأويل والاصطلاح وبين السرد القصصي وإبراز مناقب أعلام التصوف ومشائخهم وما ارتبط بهم من كرامات، والاهتمام بالتصوف السلوكي والتصوف الباطني أو علم المكاشفة، ومنه جاءت أهمية ظاهرة الولاية والكرامة في الكشف عن الوضع الرّافد المغيّب، وكان على المؤرخ أن يهتم بما تقدمه المدونات من تاريخ محلي، وما تتضمنه من مواضيع حول نشاط الأطراف النائية والبسطاء من خلال أعلام برزوا داخل نفس المحيط، وما تضمنته المناقب من مواضيع صوفية وخطاب يبرز فيه المادي والملموس، وفي هذا الموضوع حاولنا التعرف على مضمون الخطاب الصوفي للعدواني كنموذج للمدونات التاريخية في الفترة الحديثة .

3. التعريف بالعدواني وكتابه:

1.3– نبذة عن الكتاب:

يعدّ تاريخ العدواني من المصنفات التاريخية والأدبية، بما تضمنه من مواضيع متنوعة شملت أخبار الهجرة واستقرار بعض القبائل العربية، والأحوال والتقلبات السياسية والاجتماعية بالمنطقة المغاربية وأصول بعض المدن والقرى، إضافة إلى العلاقات الروحية بين المشرق والمغرب منذ الفتح الإسلامي .

كما فصّل في حروب الشابية مع حكام تونس والجزائر، والقبائل التي كانت تنشط بالمنطقة منهم: الحنانشة، أولاد سعيد، طرود، ودريد، وعدوان، وإبراز علاقتهم بالسلطة الزمنية والروحية الممثلة في الشابية، وتناول نشاط الشيخ محمد المسعود الشابي

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

(ت 1028هـ/ 1618م) وابنه علي[1] ورحلتهما بين الجريد وسوف، ويتميّز العدواني في كتابته بالتعاطف مع الشابية انطلاقا من ثقافته الصوفية وما تعلّق بها من كرامات وخوارق، و لم يخلو الكتاب من آيات استدلّ بها المؤلف من القرءان الكريم، إضافة إلى ذكره للأمثال والروايات الشعبية والتي جاءت في أغلبها باللهجة العامية[2].

ويعدّ الكتاب مصدرا هاما في التأريخ المحلّي والجهوي، باعتباره مثل مجالا خصبا للعدواني في التعريف بمنطقة بلاد سوف والجريد والزيبان ووادي ريغ، نظرا لانتماء الراوي للمنطقة واستقراره بها، فتتبع أخبارها وصوّر بعض طبائع أهلها وعلاقاتهم الاجتماعية وعاداتهم، والكتاب في أصله مخطوط يحتوي على أخبار ومعلومات تاريخية جاءت بلغة عامية فيها بعض العبارات الفصحى، قام بتحقيقه الدكتور أبو القاسم سعد الله، حيث جاء في مقدمة المحقق أنّ نسخته المخطوطة تمّ إملاؤها بأسلوب عامّي وأخذ النسّاخ ينسخون عن النسخة الأصلية وكثرت معه الأخطاء التي كانت في أغلبها سماعية،

[1]– محمد المسعود من محمد بن بنور الشابي فقيه وصوفي ومؤرخ من شيوخ الشابية، له ثمانية عشر تأليفا في الفقه والتصوف والكلام والتاريخ منها: "الفتح المنير بما ربوا به الشابية الفقير"، "والمقرب المفيد في فروض العين والتوحيد"، عاش في القرن السابع عشر متنقلا بين سوف وتوزر وقفصة ونفطة، أما ابنه علي ولد سنة (100 هـ/1591 م) في قرية تيزاقرارين بالأوراس حفظ القرءان الكريم بقرية الزاوية وتعلّم على يد والده محمد المسعود علم الكلام والفقه والحديث والتفسير والتصوف، عن مسعود الشابي انظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982، ص132–133. وعن ابنه علي ينظر: علي الشابي، تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني، دار نقوش عربية، جمعية الشابي للتنمية الثقافية والاجتماعية، تونس، 2015ص 338.

[2]– عن مؤلفات المناقب بالجزائر في الفترة الحديثة ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، 1500–1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص113–117.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

وغلبت عليه اللهجة العامية التي سمّاها سعد الله لغة القرن العاشر والحادي عشر – الهجريين– في الواحات البعيدة، فهي لغة بني هلال وبني سليم الباقية على بداوتها رغم البعد عن منابتها وتقادم العهد بها[1].

ورغم ما ينقص الكتاب من ضبط للحوادث والتواريخ إلاّ أنّ مادته التاريخية غزيرة لا يمكن تجاهلها باعتبار أنّها تمثل مصدرا تاريخيا في وقت كانت الأخبار فيه ناقصة وشحيحة، تناول فيها الكاتب مواضيع عدّة عن هجرات القبائل والرّحلات الخيالية والقصص، ولعل النسّاخ تصرفوا في معلوماته حذفا وإضافة وتحريرا بأشكال مختلفة، وفي هذا الجانب حاول سعد الله في النسخة التي حققها أن يضع شرحا تفصيليا لكثير من المصطلحات والدلالات المرتبطة بها .

2.3– التعريف بالكاتب:

هو محمد بن محمد بن عمر العدواني الرّحماني السوفي اللّجي دفين الزقم، من علماء سوف عاش في الفترة الممتدة مابين (1133هـ –1207هـ/1720 – 1792 م)، وهو من كبار المتصوفة، عاش في البداية حياة متقلّبة، تنوعت معارفه وثقافته حسب ما تشير إليه كتاباته، فقد كان يحفظ القرآن ويستدل بآياته، ويحفظ الأخبار والروايات والقصص والطرائف، وتكوّن تكوينا صوفيا، وهو ما تدل عليه ترجمته لشيوخ الشابية ورحلاته الرّوحية وتقديسه للمشائخ، إضافة إلى انتمائه الصوفي القادري، هذا السلوك الصوفي للعدواني ومحبّته للمشائخ تتضح في رواياته وصفات التبجيل المقترنة بذكرهم، فهو على ما يبدو كان متعلقا بالمتصوفة والأولياء متأثّرا بهم ومتعاطفا مع شيوخ الشابية

[1] – محمد بن محمد عمر العدواني، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005، ص 12.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

ضدّ الحكام الأتراك ومؤرخا لهم معددا لمناقبهم ومقتفيا أثرهم ورحلتهم وبالأخص مسعود الشابي وابنه علي[1].

3.3– عصر العدواني:

عاش العدواني خلال القرن الثامن عشر، في فترة كانت فيها المنطقة تعيش تحت سلطة القبيلة أو رجل الدين، إضافة إلى سلطة البايليك التي كانت تسعى إلى تحييز المجال وضمان ولاء القبائل وإدماجها ضمن المجال المكاني وإخضاعها لسلطة البايليك باعتبار أنّ الجزائر وتونس كانتا ضمن أقاليم الدولة العثمانية .

وكانت الحروب مستمرّة بين السلطة العثمانية والقبائل المتنقلة كقبيلة الحنانشة وطرود ودريد وأولاد سعيد وزعماء الشابية، فقد أوكلت الطريقة الشابية لنفسها مهمّة صهر القبائل البدوية داخل منظومة "الإسلام الشعبي" القريب من أذهانها، وقدّمت نفسها كبديل أمام تعقّد تصوف النخبة الذي يصعب استيعابه من طرف العامة، وبهذا شكّل التصوف الشعبي المجال الوحيد لتديّن الأصناف المذكورة. كما كان للقبائل مكانة اجتماعية ونفوذا نظرا لقوتها المادية وحتى الشعبية، فكانت تحدّد علاقتها بالسلطة عن طريق الاستفادة المادية المتمثلة في أموال السّلطة، والإعفاء من الجباية، وهو ما يحدد مصير القبائل في السلم والحرب[2].

والجدير بالذكر أنّ السلطة خلال هذه الفترة تنازعتها ثلاثة من القوى الفاعلة في المجتمع، سلطة البايليك والممثلة في بايات تونس والجزائر، وسلطة القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية تعتمد على العصبية كقاعدة أساسية لقيام الدولة، وسلطة شيخ الطريقة أو

[1]– المصدر نفسه، ص 28.

[2]– علي الشابي، العارف بالله أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1979، ص83.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

الفقيه، وقد تتحالف هذه القوى كما حدث للشابية مع القبائل ضد سلطة الباي أو البايليك، أو تتنافر نتيجة تداخل الصلاحيات مما يؤدي إلى صراع أو حروب.

وعصر العدواني كان فترة خصبة نشطت فيها الطرق الصوفية وأبرزها الطريقة الشابية التي قامت بدور هام في هذا المجال معتمدة على سمعة شيوخها ورصيدها الصوفي بين القبائل البدوية بداخل تونس وشرقي إقليم قسنطينة وجنوبها، كما شكلت الفترة مابين القرنين 17 و18م مرحلة هامة من مراحل ازدهار التصوف الشعبي وما اقترن به من دروشة، وارتبط ذلك بالتخلف السياسي والعلمي للعالم الإسلامي، فقد أصبح التصوف الشعبي نموذجا متميزا في هذا المجال، وصار المناخ الذي يتنفسه الجميع بموقعه المكاني داخل أوساط الجماهير رغم ما طاله من سلبيات[1].

كما نشطت خلال هذه الفترة الزاوية القشاشية، التي ارتبط نشاطها بشيخها أبو الغيث القشاش المتوفي بعد سنة (1031هـ/1622م)[2]، وقامت بنشاط تعليمي وجهادي بمواجهة الخطر الخارجي المتمثل في الاحتلال الإسباني لتونس، واحتلت مكانة هامة نتيجة نشاطها الديني والتعليمي، حيث استقطبت عددا كبيرا من الأتباع من الجريد التونسي ومن جهات مختلفة، وامتدّ تأثيرها إلى مناطق عديدة نظرا لمكانتها المحورية وعلُوّ سند مشايخها، كما تدعمت علاقتها بالسّلطة السياسية، وساهمت بدور تاريخي في إكساب

[1]– لطفي عيسى، مغرب المتصوفة الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي من القرن 10هـ إلى القرن17م، مركز النشر الجامعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2005، ص 313.

[2]– محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، دار آفاق برسبيكتيف للنشر، تونس، ط2، 2003، ص197 .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

الطريقة القشاشية الصّدارة على حساب بقية الزوايا والطرق الأخرى في الجنوب وفي حاضرة قفصة نفسها[1].

4. التصوف في كتاب العدواني:

يحتلّ التصوف والشرف جزءا هاما من تاريخ العدواني، كما يمكن إدراجه ضمن النصوص المنقبية التي تناولت بالحديث شخصيات صوفية لعبت دورا بارزا في حياة السكان وهدايتهم، وتخليد ذكرهم بما تركوه من أثر وما اضطلعوا به من نشاط بين أسلوب واقعي وآخر رمزي مرتبط بالولاية والصلاح ودورها في بيئة العدواني.

وموضوع التصوف بما تضمنه من ممارسة سلوكية ومكاشفات حول الصالحين والكرامات والبركة والخلوة والذكر شغل حيّزا واسعا من اهتمامات العدواني، مع التركيز على مناقب الصالحين أمثال: الشيخ حسن عيّاد وعلي عزوز، وزكريا البسكري وبوعلي السني، وعبد القادر الجيلاني (ت561هـ/ 1166م)، وأحمد بن عبد العزيز، والشيخ البكري، وعباس الغريب[2]، ممن التقاهم في رحلاته الصوفية، وما حدث بينهم من

[1]– بن أبي لحية المنتصر بن المرابط القفصي، نور الأرماش في مناقب القشاش، دراسة وتحقيق: لطفي عيسى، حسين بوجرة، المكتبة العتيقة، تونس، ص76.

[2]– هذه الشخصيات الصوفية التي ذكرها العدواني منها من هو مشهور مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني شيخ الطريقة القادرية والشيخ البكري الذي ترجم له الزركلي في الأعلام، والبقية لم ترد تراجم حولهم إلا ما تناوله العدواني من لقاء دون تفصيل عن مسار حياتهم، وهو ما يطرح إشكالية اللقاء الحقيقي واللقاء الرمزي عن طريق الرؤيا أو الكرامة، ولم يشر فيرو لتفاصيل أو تعا ريف في دراسته لكتاب العدواني :

Feraud (l), Kitab ELAdouani ou le Sahara de Consantine aTunis-; Recueil des notices et memoires de la Archeologique de la province de Constantine, 1868, p65-66.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

حوار ونفحات صوفية وكرامات وخوارق، فجاء الكتاب مليئا بالرمزية والمفاهيم الصوفية التي عكستها خصوصية البيئة والعصر الذي عاش فيه العدواني، ومن أبرز المواضيع الصوفية التي تطرق لها العدواني:

1.4– رحلته الصوفية:

لعل من أبرز ما ميّز العدواني في سلوكه الصوفي هو البحث عن شيخ التربية للاستفادة منه وأخذ الطريقة عنه، فكانت رحلته الروحية باتجاه الشرق ليتصل بالشيخ البكري[1]، وزيارته له بالشام لطلب الفاتحة حسب تعبيره والانسلاك في سلك الصالحين، وقد نسجت حول هذا اللقاء هالة صوفية اعتراها نوع من الخيال، واحتلّت الكرامة جزءا كبيرا في تفاصيلها، فالمجال الزمني في الرحلة كان مغيّبا فهي لم تستغرق فترة زمنية معينة، كما أنّ المحطات المكانية كانت قليلة، فيكتفي الرواي بالقول "...إلى أن بلغنا الشيخ فوجدناه بسمرقند زائرا الشيخ داوود.."[2]. وبعدها ينقلنا إلى الحوار الصوفي الذي يبرز الشخصية الدينية وما يغلب عليها من فراسة تبرز حضور الكرامة في التعرّف على مرافقه، وينتقل بعد ذلك إلى سرد رؤيا الشيخ بقوله: "أخذ الشيخ طاسة ماء مسح بها وجهي، ...ثم بقينا عنده سبعة أيام، وهو يوصيني ويقول لي عليك بثلاثة مسائل: قلة الأكل، وقلة النوم، وقلة المجالسة مع غير أهل الخير"[3].

[1]– هو محمد بن محمد الصديقي البكري ولد سنة 930 هـ/ 1525 م، وهو مصري يعرف بالقطب وله مؤلفات، ومن أولاده أبو سرور البكري الذي يبدو أنّه كان معاصرا للعدواني، للتفاصيل ينظر ترجمته: خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس وتراجم، ج7، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص60.

[2]– العداواني، المصدر نفسه، ص 159.

[3]– المصدر نفسه، ص 159.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

وبعد التزوّد بالنصائح والتعرّف على الشيخ عاد العدواني إلى وطنه، ودار بينه وبين مرافقه حوار حول مشقّة السفر، ومرافقه يخبره ببركة الشيخ في مساعدتهم بطيّ الطريق والوصول دون تعب في نصف يوم انطلاقا من سمرقند مرورا بمصر وطرابلس وصولا إلى توزر وهو ما عبّر عنه بقوله: "قلت له: خرجنا اليوم من سمرقند، نصلّوا الظهر في توزر قال لي: أظنّك لم يتمّ اعتقادك مع الشيخ، قال، قلت له: والله إلاّ اعتقادي مع الشيخ تامّ، ولكن جاهل أمر الشيوخ .يرحمك الله . قال لي: اربط على الاعتقاد، ولا تخالف أمر الشيخ، قال: فنزلنا نفطة .قلت له: نصلوا الظهر؟ قال لي: نصليّاه في سوف. قال الراوي فوصلنا اللجة، فوجدنا السيد محمد بن عمر التفتزاني إمام اللّجة، فصلينا خلفه الظهر ..."[1].

والصحبة التي كانت بين العدواني والبكري هي عملية متجددة في الخطاب الصوفي بين الشيخ والمريد، تعتريها أحوال ظاهرية وباطنية، فرحلته من سمرقند إلى الشلف كانت مملوءة بالكرامات، بإذن من شيخه المربي الذي أمره بمهمة السفر بهدف الاتصال والتعرّف على شيخ عارف يكون له حوار صوفي معه في أسرار التصوف، انطلاقا من توجيهات ونصائح يغلب عليها الاستشراف والفراسة، ومما تضمنته قوله: "..يسألك عليّ فلا تكلمه فهو يفهمك ويعلم ما جئت به، وإذا حدّثك فقل: لا أدري، ويعطيك كتابا فاقبضه، والذي يأمرك به قل: نعم ..."[2].

وانطلق في رحلته التي كانت في مدّة قصيرة استغرق فيها يوما ونصف على قدميه ومتخذا عكاز الشيخ متكأ له، ومرّ بسوف حيث أخذ قسطا من الراحة وكان له لقاء مع الشيخ الزقام، ومنها إلى وادي ريغ، ثم إلى مراكش بالمغرب وصولا إلى الشلف قبل

[1]– Feraud, op- cit, p 83.

[2]– العدواني، المصدر السابق، ص 313.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

طلوع الشمس، وفي لقائه بالشيخ كان له حوار يكتسي مضمونا صوفيا: حيث سأله الشيخ عن معرفته الطريق ومن كان دليله؟ فأجابه بأنه عكاز الشيخ، فاستنكر عليه الشيخ هذه الإجابة وطلب منه كتمان السرّ لأنّ ذلك يعطّل الوصول إلى مراتب الترّقي الصوفية، فقصّ له الشيخ علاقته بالشيخ البكري وكيف أخذ عنه، وأمره بالسمع والطاعة للشيخ، وأعطاه جوابا فجعل سفرجلة في كاغط وشّد عليه بكتانة بيضاء وسرّها له، فرجع العدواني إلى سمرقند حيث الشيخ البكري وعمل بنصيحة شيخ الشلف بصحبة الشيخ وخدمته مع الحذر من إفشاء الأسرار متخذا الصبر والذكر وطاعة الشيخ وسيلة للوصول[1].

تمثل هذه الرّحلة الصوفية التي تناولها العدواني مثالا لسلوك الطريق الصوفي والسّعي للوصول إلى المراتب الكبرى التي تمكّن المتصوف السالك من التقرب إلى الله، وهذه الرحلة التي يعبّر عنها بالطريق قد تكون شاقّة وتتميّز بالمحن، وتساهم في تغيير الذات بمصاحبة الشيخ والالتزام بالعلاقة المشترطة بين المريد والشيخ المربّي، غير أنّ هذه الرحلة الروحية لا تخلو من مبالغة بما تتضمنه من خطاب صوفي تأويلي فيما نسج حولها من المكاشفات والكرامات والتغيّب الصوفي، وهو ما يشير إلى أنّ تصوف العدواني يندرج ضمن مدرسة التصوف الباطني الذي يراعي الواردات والأحوال والمكاشفات، التي أصبحت خصوصية بارزة ضمن ذهنيات المجتمع المغاربي خلال القرن السابع عشر والثامن عشر .

2.4– دعوته إلى التصوف والمشيخة: يدعو العدواني في كتابه إلى خدمة شيوخ التصوف والاعتقاد في ولايتهم انطلاقا من صدق النيّة لحصول البركة والترقّي في مراتب

[1]– المصدر نفسه، ص 317.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

التصوف، ويورد في هذا الجانب تفاصيل ما حدث له بدخول الخلوة عند قدومه للشيخ عزّاز، حيث استهلّ بها بداية الدخول إلى الطريق واستغرق في الخلوة مدّة لا يأكل ولا يشرب، وفي اليوم الثاني عشر أتاه الشيخ البكري وبقي معه في الخلوة، وكانت بينهم مكاشفات تناولها العدواني بأسلوب رمزي، وكرامات كانت بداية للوصول إلى الولاية على حدّ تعبيره: "... فقال لي الشيخ الآن صرت في باب الولاية و لم تدخلها ولكن عليك بسيدي مصطفى البغدادي... "[1].

وفي هذه الرواية ما يدلّ على أنّ التجربة الصوفية تندرج ضمن التزكية الروحية والسفر في الخيال، وأنّ إرشاد شيوخ التصوف موكل بمن هو أعلم بمراحل الطريق، فالبكري أراد أن يوجّه العدواني لشيخ تربية آخر، مع مخاطبة باطن الفرد الصوفي بالتركيز على الكرامات وقطع المسافات البعيدة في ظرف قياسي، وهذا من تداعيات التكريم الصوفي الذي قد يحصل للسالك في تصوف الجذب للمريد، كما يحصل للشيخ في تصوف التربية والسلوك بعد الوصول إلى مرتبة الولي[2].

وعطفا على رحلة العدواني فقد دخل بغداد ووجد الشيخ مصطفى الذي كان موجها له، وكانت له زيارة لضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني والتبرك به، وهو ما يرجح انتماءه القادري أو الرغبة في البحث عن البركة من خلال زيارة أضرحة الصالحين، والتقى أيضا بالشيخ النجّار العراقي، ثم واصل رحلته معه إلى بورنو، لكن الشيخ البكري نصحه بالعودة إلى وطنه سُوف للقيام بواجب الدعوة رغم الظروف التي

[1]–Jean .Claude Garcin, "Assises materielles et rôle économique des order soufis a l'époque premoderne" in les voies dallah, les orders mistique dans l'islam dorigine a Aujourdui, sous la derection de APopovic et G .Veinstein, Paris .1996, p 233

[2]– العدواني، المصدر السابق، ص 321.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

عبّر عنها العدواني بأنّها غير مشجعة في حوار دار بينه وبين الشيخ، وبيّن له أيضا أهمية العودة معبِّرا عن ذلك في قوله إنّ "..الملك لله ثمّ أورثه للصالحين، فأنت المالك لوطنك والقائم بأحواله"، وعاد العدواني في ظرف قياسي لموطنه[1].

إنّ هذه الحكاية في ضوء التقاليد الصوفية ترتبط بمراحل سلوك الطريق، المنطلق من الاعتقاد في شيوخ التصوف والأولياء، وحسن النيّة في لقائهم، حيث يمثل الوضوء طهارة الظاهر والباطن، فالعدواني أراد دخول الخلوة التي تشكل مرحلة هامّة من إرهاصات المشيخة، يستعدّ خلالها الشيخ للتدرّج في المقامات، والوادرات التي تخالجه من نوازع روحية وما يعقبها من تطورات، غير أننا لا نجد ما يشير إلى التدرج في المراحل الصوفية، فيما عبّر عنه الراوي، وهو ما يدل على أن العدواني كان يسعى إلى تحصيل تصوف البركة المختلف عن تصوف التربية والسلوك الذي يتمحور حول التكوين والترقّي الصوفي للوصول إلى الولاية .

ويعيدنا الرّاوي في موضع آخر إلى رحلة روحية جديدة بين اللُّجة ومدن المشرق، وينقلنا عبر تفاصيلها مابين الرؤيا والحقيقة في حوار بين شيوخ التصوف، فابتدر روايته بالسؤال عن مدائن قوم لوط بأسلوب قصصي بقوله: " ثمّ في إحدى الليالي كنت نائما ببلادنا اللّجة، ..ورأيت في المنام مناديا ينادي فإذا بالشيخ البكري بربوة عالية ينادي يا محمد العدواني هلمّ إلينا، فحدّثت عنها أحمد بوعزيز فطلب منّي الإسراع للقاء الشيخ البكري، فتوظأت وقلت لزوجتي ائتنا بزيارة الشيخ، وكانت لنا جولة اجتمعنا فيها بإخوان بطرابلس، وسرنا وصلينا الظهر بالقاهرة، .. وصلينا العصر مع الشيخ البكري بدمشق ..."[2].

[1] – المصدر نفسه، ص 322.

[2] –Feraud, op-cit, p 66.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

يتكرر في رواية العدواني ذكر الكرامات المرتبطة بقطع المسافات وطيِّها في زمن قياسي، وهذه الرواية المنبعثة من الحلم أو الرؤيا التي تحظى في الثقافة الصوفية بمصداقية مستمرة، والتي يحاول العدواني إدراجها ضمن العالم الواقعي تجسِّد مشهدا خاصا لرحلة من حياة المتصوف والمرتبطة بتعظيم نفسه والمبالغة في تقدير شيوخه، مما يجعل الرواية تحمل خطابا تأويليا فهي أقرب إلى الخيال والحلم منها إلى الحقيقة .

5. خطاب الكرامات:

احتلّت الولاية بمفهومها الصوفي مكانة بارزة في تاريخ العدواني فيما تناوله من لقاء بشيوخ التصوف وإيراد كثير من الكرامات المرتبطة بسلوكاتهم، وتوسيع دائرتها في المخيال الاجتماعي، والتي تمحورت حول قصص ورؤيا في المنام، وهذه الروايات التي تعتبر رحلة في الذاكرة وفي المخيال شكلت جزءا كبيرا في كتابات العدواني ومن هذه النماذج:

1.5– حادثة الإمام الغزالي واليهود والعلماء:

ما حدث بين أبي حامد الغزالي (ت505هـ/1111م) واليهود والعلماء لا يخلوا من سرد للكرامات التي يبدو أنّها حاضرة في الأسلوب السردي للعدواني فقد شبّه الغزالي بسلوكه الصوفي ومكاشافاته وكراماته بالنبي عيسى عليه السلام وما ارتبط به من معجزات في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، حيث تطرق للحوار الذي دار بين الغزالي واليهود، مشيرا إلى قولهم للغزالي سمعنا حديثا من نبيّكم قائلا: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل .." فأكد لهم ذلك، فتحدّاه اليهود مطالبينه بعدم القرب من المقبرة،

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

وهنا تظهر من خلال الرواية كرامة أبو حامد الغزالي في إخراج ميّت من قبره وعودة الحياة له، وما نتج عن الحادثة بإسلام ثلاثة من اليهود[1].

ويواصل العدواني إبراز أثر هذه الكرامة بين علماء المسلمين السنّة الذين حاولوا التبيُّن من هذا السلوك، فاستفسروا الغزالي عن هذا السلوك والكرامة، فكانت إجابته بذكر حديث تقرّب العبد من الله عن طريق النافلة فقال لهم: أتحفظوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث: لازال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه التي يسمع وبصره الذي يبصر ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فصار الذكر من دمي ولحمي، فصرت أذكر الأشياء بلسان الله"[2].

يبدو أنّ الرواية بما تمثله من تشبيه بين الأنبياء والأولياء ومحاولة الرواي إبراز مكانة أبي حامد الغزالي كوليٍّ تحدّى اليهود وعلماء عصره السُّنيين عن طريق الكرامة غلب عليها نوعا ما التطرّف والمبالغة وتصنيفها في مقام المعجزة، ولعل هذا التصنيف بما يحمله من خطاب كان مرتبطا بظروف المرحلة، والعدواني كان يمثل داعية لهذا النوع من التصوف الذي ميّز عصره، حيث أصبحت الأسطورة تتكلف بتدبير الرحلة في المخيال الجماعي متجاوزة الزمان والمكان، ومع أنّ الرواية مختصرة إلا أنّها تشير إلى التوجه الصوفي للعدواني ومحبته للصالحين وتبجيله لهم والمسارعة للأخذ عنهم ناسجا حولهم كرامات تتجاوز حدود المعقول إلى مجال الخرافة والخيال .

[1]– هذه الحادثة والرواية مبالغ فيها، حيث يشير المحقق إلى أنّ ما نسب للغزالي في هذا الجانب يعتبر تطرفا نظرا للاعتقاد السائد لدى الكثير من المتصوفة في الغزالي، العدواني، المصدر السابق، ص 314.

[2]– يوسف ابن إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياءج1، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، مركز أهل سنت بركات، الهند، ط3، 2001، ص 181.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

وتطرّق العدواني في موضع آخر إلى أبي الحسن الشاذلي (ت656هـ/1258م) برواية كراماته أثناء تواجده بشاذلة التونسية ومن كراماته حين كان يمرّ على مواطن قبيلة بني عايل فرقة من مرداس لم تكن كلابهم تنبح عليه، وكانت تأتيه ضبية في الصباح عند الفطور فيشرب من حليبها، وخوارق أخرى لا تختلف عن ما تناولته المناقب الشاذلية في ذكر كرامات الشاذلي أثناء تواجده بتونس وتعبّده بالمغارة المعروفة بالمغارة الشاذلية بجبل الجلاز[1].

كما تناول بالرواية بعض الصلحاء أو متصوفة الوقت، ومنهم الشيخ أحمد بن عبد العزيز الذي كان من مرافقيه، فتطرّق إلى وفاته باللّجة، وذكر بأنّه غُسِّل من طرف الولي الصالح الزّقام صاحب الإشارة، وأدخله قبره أبوزيد خالد بن سالم، وصلى عليه علي بن بكر بن مولاي الشريف حمد الشريف، وحمل نعشه المقداد بن حامد بن عامر بن مبروك ..."[2].

وفي معرض حديثه عن الصلح الواقع بين المنتصرين من قبائل طرود والمنهزمين من عدوان تطرّق إلى إحدى النساء المعروفة باسم: "زينب بن تندلة" التي تعتبر من الصالحات بوادي ريغ وكان بيتها مكانا يأوي إليه عابرو السبيل، ويذكر العدواني كرمها ودورها في النصيحة لهم بشأن أولاد عدوان ونسائهم، ودعت لهم بولاية وادي ريغ فحملوا الصبيان والشيوخ ورجعوا إلى قصور عدوان عملا بنصيحتها[3].

[1]– عن حياة أبي الحسن الشاذلي وكراماته ينظر: الشيخ الحميري المعروف بابن الصباغ، درّة الأسرار وتحفة الأبرار في أقوال وأفعال وأحوال ومقامات ونسب وكرامات وأذكار ودعوات سيدي أبو الحسن الشاذلي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2001، ص 22 .

[2]– العدواني، المصدر السابق، ص 322.

[3]– المصدر نفسه، ص 102.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

وكانت هذه النصيحة التي قدمتها الوليّة بمثابة توجيه ديني يبرز مكانة هذه المرأة ضمن الصالحات بمنطقة وادي ريغ، ودورها في الصلح، وهذا ما حاول العدواني أن يبرزه من مناقب الصلحاء، وسلوكاتهم ومشاركتهم في الأحداث الهامة بما قدّموه من توجيهات وإصلاح في المجتمع .

2.5– شيوخ الشابية:

تناول العدواني الطريقة الشابية وعلاقتها بحكام تونس والجزائر، كما تطرّق بالتفصيل إلى سيرة الشيخ مسعود الشابي في رحلته بين الجريد وسوف التي امتدت زمنيا ما بين (1020هـ/1612م) إلى سنة (1050هـ/1641م)[1].

وأسلوب العدواني في تناول تفاصيل الرّحلة يغلب عليه السرد القصصي بخطاب صوفي يركز على الكرامات التي نسبت إليه، والتي ترتبط بمقامه الصوفي ومكانته كوليٍّ، والتي نورد منها ما تعلّق في هذا الجانب "أنّ الشيخ مسعود الشابي لمّا نزل على اللُّجة التقى بالشيخ أحمد بن عبد العزيز اللُّجي واستضافه، فقصّ عليه قصّة قال له: وإنّي نائم ذات ليلة بموضع يقال له فوتى وإذا بسيدي عرفة (الشابي) أوكزني وقال له: يا مسعود انطلق إلى ناحية القبلة فإنّ فيها أمّة لا يعرفون ربّا ولا نبيّا، دُلّهم على الطريق الربّاني إن شاء الله يسلموا على يديك"[2].

وخلال إقامته باللُّجة قدم إليه رجل يقال له عون بن موسى واستفسره عن رؤيا رءاها في المنام، وكان لهذه الرؤيا وتفسيرها من طرف الشيخ مسعود الشابي أثر في إسلام

[1]– إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص 224.

[2]– العدواني، المصدر السابق، ص 112.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

عون بن موسى اللُّجيّ، حسب رواية العدواني[1].

ورغم ما يعتري الروايات التي تناولها العدواني من رمزية فيما نسبه للشيخ المسعود من كرامات إلاّ أنّ ذلك لا يقلل من المكانة التي اضطلع بها مسعود الشابي والشابية في دعوة أهل اللّجة إلى الإسلام، ونجاحه خلال فترة قصيرة في هداية حوالي ثلاثة وعشرون رجلا معهم عون بن موسى اللّجي وآخرون، وأقام بينهم يدعوهم للإسلام فعلّمهم من مبادئ الدين سورة الفاتحة وبعض السور وبعض أسرار العبادات، وجعلوا له وللشابية خراجا كل عام[2].

كما واصل الشيخ المسعود بنشاطه الدعوي فتح المجال أمام انتشار الطريقة الشابية، واستمرّ الاهتمام الدعوي بعد تكليف ابنه علي الشابي باستكمال مهمته بالمنطقة، وهذا ما تشير إليه رواية العدواني بأنّ مسعود الشابي قال لأحد شيوخ قرية نفزاوة: "بأنّه سيبعث لهم ابنه علي، فإنّ له حظّا عظيما من الولاية"[3].

وبناءا على وصية والده استكمل علي الشابي النشاط الدعوي في هذه المنطقة، مبتدئا رحلته باتّجاه سوف، ومتنقلا بين المناطق المجاورة، وتناول العدواني هذه الرحلة الدعوية مبرزا تفاصيلها بقوله: "قال الراوي: وانطلق بنا سيدي علي المسعود قاصدا سوف فبلغ قصورها، وأولُها اللّجة فعرضوه بالترحيب، وقاموا بضيافته ثم انتقل إلى

[1] –Feraud, op-cit, p52-53.

[2]– العدواني، المصدر السابق، ص 128.

[3]– المصدر نفسه، ص 123، كان عرفة الشابي قد جنّد قبيلة طرود واستفاد منها في حروبه، وأرشدهم إلى الالتزام بالتعاليم الدينية، وكان يحصل منهم على هدايا وإعانات للتفاصيل ينظر: علي الشابي، عرفة الشابي، رائد النضال القومي في العهد الحفصي، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1982، ص 77.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

العشّ، وقالوا له ما تريد يا سيدي قال لهم: نريد منكم إصلاح أحوالكم والدخول إلى ملّة النبي صلى الله عليه وسلم ..فأسلموا كلّهم، ثم قصد قرية غنّام فدلّهم على الطرق، فمنهم من أبى ومنهم من أسلم، وقصد قرية تاغزوت فمنهم من أسلم ومنهم من أبى، ثم انتقل إلى وادي ريغ"[1].

واستغرقت رحلته مدّة طويلة قضاها في النشاط الدعوي، والتي بلغت حوالي ست وثلاثين سنة متنقلا فيها من مكان لآخر بين القبائل في إطار المنشأة الصوفية للطريقة بيت الشريعة، ومدعوما من المشايخ المكلفين بتدريس المواد العلمية بالمنشأة، وواصل تنقلاته بين الجريد وسوف إلى أن استقرّ به المقام بتوزر سنة (1048هـ/ 1638م)[2].

والجدير بالذكر أنّ نشاط علي الشابي الدعوي حقق أهدافه بهداية عدد كبير من سكان المنطقة، و لم يجد معارضة شديدة من طرف القبائل، ولعل ذلك راجع إلى السُّمعة والهيبة التي تمتع بها والده مسعود الشابي، والامتداد التاريخي للشابية بالمنطقة منذ عهد الشيخ عرفة الشيخ الثاني للطريقة والذي نجح في ضمّ قبيلة طرود للشابية، إضافة إلى الشّهرة التي تمتعت بها بيت الشريعة كزاوية متنقلة وبديلة عن زاوية جبل ششار ودورها التعليمي.

فتاريخ العدواني من المصادر المؤرخة للطريقة الشابية ودعاتهاوفق طرح مناقبي يعدد ثمرات جهدهم التي أتت أكلها، بعد تكوينهم لعدد من المقدمين والمشايخ، وتصحيح بعض العقائد في وادي سوف، إضافة إلى الدور الاجتماعي المتمثل في حلّ النزاعات والصراعات القبلية، وتنظيم الاستفادة من الموارد كمياه الجريد وملكيّة النخيل،

[1]– العدواني، المصدر السابق، ص 130.

[2]– محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982، ص 128.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

وكذا تفعيل دور المؤسسات الدينية والمتمثلة في المساجد التي شيّدوها للقيام بالنشاط الدعوي أحدهما بالوادي والثاني بقمار حوالي سنة (965هـ/1557)[1].

3.5– زيارته للشيخ زكريا البكري وحسن العيّاد:

من الأولياء الذين زارهم العدواني يذكر أنه زار ببسكرة الشيخ زكريا البكري فوجده يحدِّث عن الصالحين وأخبارهم، كما خصّ بالذكر الشيخ حسن عياد النفطي، فاشتاق العدواني للقائه وتوجه إليه فوجده جالسا يحدث قومه، وأراد العدواني معرفة أسرار المكانة التي وصل إليها فسأله بقوله: "يا سيدي بما نلت هذه الدرجة الرفيعة ؟ قال لي: يا بني نلتها من اشتقاق اسمي عياد المرضى الكرباء قلت له: ادع الله لي أن يسهل علينا أمورنا وينظمنا مع سلككم فدعا الله تعالى والحمد لله رب العالمين"[2].

هذه اللقاءات التي جمعت العدواني بعديد المشائخ والشخصيات الصوفية تندرج ضمن الدعوة الصوفية التي تهتم بلقاء الصالحين والأخذ عنهم، كما تبرز العلاقة الدينية والصوفية المرتبطة بحضور الكرامة وعلاقتها بالولي الصالح في الوجدان الشعبي والمخيال المشكِّل للمجال، فحاول العدواني إبراز البعد الشخصاني والنخبوي للتصوف بالتركيز على تجلياته الذهنية والفعلية، وما يصاحبها من مظاهر الإنجذاب والخروج عن المألوف.

6 .الخاتمـــة:

يمثل كتاب العدواني نموذجا للكتابات التاريخية التي جمعت بين التاريخ المحلي والعام من خلال تتبع مسار القبائل وهجراتهم مع التركيز على سلوكاتهم ومعتقداتهم الدينية وممارساتهم الاجتماعية في سياق تاريخي يبرز العصر الذي عاش فيه، والجانب

[1]–Ahmed Najah**, Le soufe des ouasis**, edition la maison du livre, Alger, 1971, p 125.

[2]– العدواني، المصدر السابق، ص 133.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

الصوفي يعتبر خير معبِّر عن التصور الذي كان يميّز المجتمع والكثير من المتصوفة ووظيفتهم الدينية والاجتماعية، وإذا كان كتاب تاريخ العدواني غير كاف في حد ذاته لكتابة تاريخ المنطقة أو المحيط الذي عاش فيه، فإنّ قيمته لا تعوض عندما يتعلق الأمر بالإطار الفكري الذي أبرز الذهنيات وتوجهات المجتمع خلال هذه الفترة .

كما ركّز العدواني على موضوع الرحلة بمقاطع وصفية يبدو أنها أخذت بعدا رمزيا وشكّلت مرحلة انتقالية، بتأثيرها النفسي ومظاهرها السلوكية، حيث شكّلت عاملا جوهريا في تحديد وجهة المتصوف، وفي بعض الأحيان السبيل إلى السياحة الصوفية وملاقاة الشيوخ وتبديد حيرة الباطن، وما يقطعه المتصوف من مراحل سبيلا إلى الترقي في رتب السلوك والاندماج في عالم الولاية مثل ما حدث بين العدواني والشيخ البكري .

ودلّت البركة المرتبطة بالولاية على أنّها تجربة باطنية ذهنية اجتماعية يعيشها كيان الفرد جسديا وانفعاليا، وهذه التجربة هي أعمق من مجرد الانتماء إلى مدرسة صوفية، ينتقل الوليّ عبرها من القلق والحيرة إلى عالم الطمأنينة، وتظهر معها الكرامات التي تؤكد صدق الولاية وانضمام الولي إلى صفوف كبار الأولياء، كما تعكس الكرامة أصداء أحداث اجتماعية تتطلب قراءة توفيقية بين جانب داخلي يحاور الرموز وخارجي يوظفها في سياقها الحدثي .

وجاءت أخبار العدواني ورواياته التاريخية غير مؤرخة زمنيا إلاّ في مواضع متفرقة، وتعدد الشخصيات التي تناولها بالذكر دون توضيح أو ترجمة لها، ما يجعل القارئ أمام إشكالية التثبت من المعلومات والأخبار، فالكتاب تنوع في عرض مواضيعه التي أشار إليها في روايته للأخبار عن الثّقات، كما ترددت الكثير من القصص التي تندرج ضمن الأدب الشعبي بما تناوله من أساطير وحكايات ومغامرات تحمل في طياتها بذور السرد القصصي من حوار ووصف وأسلوب، وتضمنت الكثير من الكرامات بخطاب تأويلي

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

وبلغة عامية استعمل فيها الكاتب مصطلحات خاصة بالمنطقة في التعبير عن الحوادث التاريخية والصوفية .

كما يمكن إدراج مواضيع العدواني ضمن مجال التصوف الشعبي، بما تضمنه الخطاب الصوفي المستعمل من أسلوب عامي في الكثير من المواطن مع خلو التصوف السلوكي من محتواه الفكري، فلم يتناول قضايا علمية أو يناقش عقيدة التصوف ومذهب شيوخه، ولم يهتم بالأسانيد الصوفية الطويلة المتشعبة التي تملأ عادة كتب المناقب وتؤكد على السلسلة الروحية ومنابعها، هذا الفراغ الفكري عوضه الكاتب بالتركيز على البركة والكرامات وتحصيل الأحوال بأقصر الطرق وهو ما يصطلح عليه بتصوف البركة .

قائمة المصادر المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، 1500–1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.

2. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الصباغ، بستان الأزهار في مناقب الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، تحت رقم: 1707 نسخ 1140هـ، 1727م.

3. أبو عبد الله محمد بن أحمد، المعروف بـ"ابن مريم "، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908 .

4. الشيخ الحميري المعروف بـ "ابن الصباغ"، درّة الأسرار وتحفة الأبرار في أقوال وأفعال وأحوال ومقامات ونسب وكرامات وأذكار ودعوات سيدي أبو الحسن الشاذلي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2001.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

5. محمد بن محمد بن عمرالعدواني، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005.

6.بن أبي لحية المنتصر بن المرابط القفصي، نور الأرماش في مناقب القشاش، دراسة وتحقيق لطفي عيسى، حسين بوجرة، المكتبة العتيقة، د.ط، تونس .

7.عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ، بيروت، ط1، 1987.

8. علي الشابي، العارف بالله أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1979.

9. علي الشابي، عرفة الشابي، رائد النضال القومي في العهد الحفصي، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1982.

10.علي الشابي، تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني، دار نقوش عربية، جمعية الشابي للتنمية الثقافية والاجتماعية، تونس، 2015.

11. إبراهيم محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، منشورات ثالة، الجزائر، د.ط، 2007.

12. خيرالدين الزركلي، الأعلام قاموس وتراجم ج7، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، 2002.

13.يوسف ابن إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج1، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، مركز أهل سنت بركات، الهند، ط3، 2001.

14. المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2012.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-030
المجلد: 36 العدد: 01 السنة: 2022 الصفحة: 963–989 تاريخ النشر: 10–05–2022

15.محمد البهلي النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، دار آفاق برسبيكتيف للنشر، تونس، ط2، 2003.

16.لطفي عيسى، مغرب المتصوفة الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي من القرن 10هـ إلى القرن17م، مركز النشر الجامعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ط1، 2005.

17. محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ج2، ج 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982.

18. Ahmed Najah, Le soufe des ouasis, edition la maison du livre, Alger, 1971.

19. Feraud (l), Kitab ELAdouani ou le Sahara de Consantine a Tunis-; Recueil des notices et memoires de la Archeologique de la province de Constantine, 1868 .

20. Jean .Claude Garcin, "Assises materielles et rôle economique des order soufis A l'époque premoderne " in les voies dallah, les orders mistique dans l'islam dorigine a Aujourdui, sous la derection de APopovic et G .Veinstein, Paris .1996.